القديم والحديث

ما رأت هذه الامة دوراً مثل هذا اشتد فيه النزاع بين القديم والحديث والهزيمة القديم بضعف القائمين به وقوة انصار الحديث . فبينما نرى ارباب التقليد يحصرون السعادة في الاكتفاء بما تلقوه من آبائهم وورثوه من اجدادهم من العلوم والآداب ويعدون ما يخالفها شراً يجب ابعاده ومحاربته بكل وسيلة كما نرى ارباب التجديد الذين يزعمون ان الاكتفاء بعلوم اهل الحضارة الحديثة وحدها كافية في رفع شأننا .

كأن الامة الاسلامية بعد ان كثر احتكاكها باوروبا في اواسط القرن الماضي عدت القديم معاداة خرجت فيها عن طور العقل وذلك نكاية بما رأته من دعاة ذلك القديم وكونهم مثال الجمود والبلاهة ونموذج الفساد وسوء التربية فقامت تزهد فيهم وفيما يدعون اليه وتحمل عليهم حملاتها وتحمّل عليهم تبعاتها وكذلك كان شأن انصار القديم مع دعاة الحديث يرمونهم بكل كبيرة ويسلبونهم كل فضيلة ويعدون من علومهم الا قليلا ويعدون النافع منها ما لا يضر ولا ينفع

لا خلاف في ان ملكة الدين والآداب ضعفت في البلاد الاسلامية لضعف حكوماتها والعامل الرئيسي في كل البلاد هو السياسة اذا صلحت تبعها كل شيء . فجل الحكام والملوك منذ نحو الف سنة هو السبب في رفع شأن الفقهاء من علماء الرسميين فصار العلم الديني الرسمي لا يتناول السعادتين ويكون عضواً عاملاً في جسم المدينة الفاضلة بل يخدم به اغراض امراء السوء ويستولي على عقول العامة ويقبل يداه ويكرم بالباطل وهذا ما حدا بحجة الاسلام الغزالي واضرابه في عصره وبعده ان ينحوا على علماء السوء الخادمين لامراء السوء لانهم يتعلمون علوم الفقه والفتيا ليتقربوا بها الى من السلاطين ويتخذوا من الدين سلاحاً يقاتلون به من يناصبهم في شهواتهم واهوائهم . ولقد فضل الغزالي في الاحياء ونيات التلامذة من يتعلمون الطب على الفقهاء وقال ان من يقولون ان علوم الدنيا تنافي الدين يجني على الدين .

فالامة رزئت في نفسها لضعف ملكاتها وكانت الحروب الصليبية وغارات التتار من العوامل المهلكة لملكاتها ثم قام ملوك الطوائف وفرقوا الشمل بعد اجتماعه الى ان جاءت الدولة العثمانية وهي تتارية لا تهتم لمدنية ولا تعرف علوم العمران فعطلت

ولا معنى قوتها بحدها وعلمها في ارتقاء حدها وعلمها بقتها وحدها باكتساح البلاد واجتماع الفوس لسلطتها فحاول محمد الفاتح احد ملوكها ان يجعل من القسطنطينيه دار علم كما في دار ملك بحاراة الدولة الحراكسة في مصر والشام وافعل امثاله الاعطيات والهبات والشأ المدارس وحبس الاوقاف ولكن ذلك لم يبده الا شوائبه حتى لا معنى لسياسة بدت الحكومة الى زهدها في العلوم وقد صارت رسمية على عهد الهتي ابي السعود اذ اصبحت معرفي لحمل العز والجاه وصار ابن العالم يرث اباه وعلمه ووظيفته وان كان اجهل من قاضي جاهل . وعالم هذه حاله هو هو الجناية الكبرى على الدين والدنيا والبلاد الاثم على البلاد .

ومع ان الفرس والترك سواء في العجمة فالفرس اقدم من الترك في تلقف اللغة العربية منذ القديم . والعربية لغة الدين لا يبرز في علومه من لم يتعلمها ولا يفهم الكتاب والسنة من لم يحكم بيانها . وما نراه من حذق ابناء فارس اليوم والعلوم العربية وارتقاء علومهم الشرعية واختلاط العربية في بلاد الترك وضعف ملكة العلوم الدينية فيها لا يرجع الا الى ان ميل ابناء فارس الى احكام العربية قديم فيهم وان الترك بامرائهم المتأخرين جمدوا على فروع قليلة من الفقه والكلام وزهدوا فيما عداها فجنوا على البلاد جناية كبرى

ولما ارادت الدولة ان تنهض وتتشبه باوربا واخذت على عهد سليم الثالث تعلم فنون الحرب والعلم والسياسة وما يدعي لها من الطبيعة والرياضة والاجتماع احدث روح التطلف تسرب الى الاستانة ومنها سرت الى الولايات ومصر فرعبا انصار القديم بازاوه اولا واحتقروا ذلك السيل الجارف الآتي عليهم من اوربا وارتأى بعضهم ان خير ما يقابل به المرتدون ان يكفروا او يحرموا او يضربوا او يحبسوا او يهددوا بالقتل او يقتلوا ولم يعدوا الثلث من العدد اللازمة لبث دعوتهم وحفظ ملكة الدين في القلوب لتسير مع علوم الدنيا كتفا الى كتف وجاءت ادوار اصبح الوزراء وولاة الامر الا قليلا من الطائفة التي ترعت رقة القديم فلم يبق عليها الا اسمه بل كان بعض المتطرفين في الخلائق يدعون سرا وجهرا الى عدم التأدب بآداب الدين مجهلين ما هو مآل العيان من فساد القائمين عليه والخطاط المنتسبين اليه

وما قد اصبحنا بعد هذا النزاع بين علوم الدين والدنيا والامة شطرين شطر هو الى

البلاهة والغباوة وشطط الى الحق والنفرة ومجاراة الحرى لسيئات القديم ولم تتخلل الجديد . ومن الغريب ان معظم المستنيرين بشمس العلوم الاوربية منا لا يرجعون الى آداب دينهم ويميلون في الظاهر والباطن الى ان يكون الدين فقط جامعة تجمع الامة على مثال الجامعات السياسية والجنسية واذا سألتهم عن الحلال والحرام وعما شرعته الاديان حصروا ذلك بحدودهم وقالوا لك ان لا امة تعيش حديثا دون قديمها وان ذلك القديم انما ينحصر الاخذ به فيما لا ينفعنا والعاقل لا يقبل الا كل ما ينفعه ويعلي قدره

تلك هي فلسفة انصار الحديث واللاادرية والزنادقة الطبيعيين كما لا يخفى عليهم الكثيرون وهذه حالة هؤلاء مع اولئك وستكون الغلبة لانصار الحديث اذا لم يقم خصومهم الى تفهيمهم الى صورة معقولة مقبولة وبين هذين الفريقين فريق ثالث اختار التوسط بينهما فلم يطرح القديم كله ولا الاخذ بالحديث بجملته بل آثر ان يأخذ النافع من كل شيء ويضع ضاره وهذا الفريق المعتدل على قلته لا يزال يلاقي من كل امر وبين الآخرين مقاومة فعلية ولكنها غير راضين عنهم بالطبع لان اكثر الناس يحبون ان يكونوا معهم او عليهم ولا وسط بين ذلك .

ولقد كتب الينا احد علماء الشرقيات في برلين وهو ممن جالوا بلاد الشرق وسكنوا فيه زمنا وانقطعوا لدرس احواله الاجتماعية وعلومه الادبية كتابا بالعربية عن فيه الدرس وما يجب للمشتغلين ان يقوموا به القيام بامرهم بعد ذلك البحث الطويل ما يأتي :

اما المسائل التي هي لديّ (الغاية) واراها تدور الآن على حث الناس على درس العلوم المدنية التي تركت في العالم الشرقي منذ نحو خمسمائة سنة واقتباس الآثار الاوربية الحديثة فيما يخص الادبيات العربية وهذا مطابق بحسب اختباري للطريقة الصحيحة لسعادة الامة اذ لا فائدة من تقليد الاجانب وحده ولا فائدة من التناهي فقط بالآثار الشرقية (الوطنية) وحدها بل الخير كل الخير في الاخذ من هنا وهناك وتعميم الدرس والبحث مع احترام تلك الشعلة العظيمة التي هي ذات نور وذات حرارة وذات نبات واعني بها المبدأ الشرقي واما ان نسميه الشعوبية فلا شرط ان نجرده من الرائحة غير المقبولة

اجتهد الاسلام والنصرانية ان ينشأ آ جمعية تقوم بالدين وحده ليكون اصلا

الشهادة بحقائق الدين ظاهر بن تقي الدين كله لانها فقط . والذي نراه ان بعض المسلمين ان جامعة الاسلام التي يشكون فيها الآن هي مسألة لا تأتي بما يرجونه كثيرا من القوة بقوة الدين بل ستقويها الاحوال السياسية وربما اتسع الخرق بين الجماعات من جهة المذهب الديني . اما انا فاقول ان قوة روابط المسلمين مع من حولهم من غير المسلمين المبنية على وحدة التربية والاخلاق والعادات وعلى وحدة اللسان لا تقل حقيقة عن قوة الدين نفسه لان هذا الاجماع من شأنه ان يضعف في الجامعة القوى فيزيد من الميل الى الحياة المدنية اعتقادا وعملا كما يزيد من الميل الى غير الدين قوة في افكاره وعلى هذا فمن مصلحة كل دين ان يكون لسلف اتباعه مجتهدين مطلقين اكثر من ان يكون الجمع قانونيين غير مكترثين بشيء وراءه

هذا ما كتبه ثانيا العالم العربي الشهير في مقالة الشهير لانه شرطه ليطلع عليه انصار القديم والحديث فيعلم الجامدون على مسطور القدم ان لا قيام لامرها مع الاخذ من مدنية اوربا ويدرك انصار الحديث ان هذه المدنية الجديدة التي يقلدونها ويرغبون فيها ومساعيها لا تمنعهم وتقيدهم في توحيد الآداب وكل ما يحفظها من علوم الاسلاف وآدابهم والامة التي تترك وثيقة قديمها حقة والحديث وتنتقل الى طور آخر دفعة قد ينعكس عليها الامر وتتحول عليها المقاصد ولم تجمع الى الكتب الا لكتب الفضلت المدنية الغربية ومزجها باجزاء مدنيتها وهذا سر قول العالم المشار اليه : لا فائدة من تقليد الاجانب وحده ولا فائدة من التخلي فقط بالآثار الشعبية دون ان ننزلها عن اعتقادها من التمسك هذا ب الوطنية وذكر القديم والحرص عليه

ولنا في الغرب دول كثيرة تمثل في التماس الحديث والحرص على القديم . فهذه انكلترا الى اليوم تجري في مدارسها وكلياتها على آداب القرون الخالية فلا توجد انكليزي فيها الا رجل عرفت تربيته وحياته بعد ان يقضي عليها تربية ابنائها لتكون مدنية دينية اما فرنسا فاخصت الدين منذ زهاء مئة سنة وزادت سلطتها له في السنين الاخيرة حتى وخت خطة العلاقة من المعاهد الدينية واخذت تطبق الخشى على اهل الدين من جهة العلم والاقلام حتى صار التدين سرا تقاضى لاهله لا يجوز لأمين على معاشه ودرجة ونحو هذا حرية ولكن لم يحصل الى الامر منها كما لا يقبل عن الافراد فقد انقلبت الحكمة الاكليريكية التي بعثت الميل في الزمن الماضي ترجع

البشري وعلماء الاخلاق فيما يكون دما على انشات شغلهم وتراجع عمرانهم حتى روى بعض الاحصائيين ان عدد الفرنسيس سيترل في اواخر القرن العشرين الى ثلاثة ملايين لان المواليد احدث تنقص عن الوفيات اما في اليابان فبفضل التربية الدينية والحرص على الاخلاق قبل الحرص على تلقين العلوم فان النفوس تتزايد سنة عن سنة بحيث خيف من تكاثر سكانها على البلاد المجاورة لم يمنع ما هم عليه من المدنية الصحيحة والعلم والصناعات والفنون ولا غرو فان من عقائد الياباني ان يترك من القديم كل ما ينفع منه اما الفرنسوي فيجرف منه النافع مع الضار وشتان بين الطائفتين والمدنيتين وها هي النتيجة قد ظهرت للعيان منذ الآن

ويعد الآن كل عاقل عرف تاريخ هذه الامة يرى الخير كل الخير في احتفاظها بدينها وصيانة كل ما ينفع من هذا الجديد على ان تكون للدين والعلم حرمتهما فتكون المعتقدات بمأمن من غش المتلاعبين بها كما تجري المدنية على النمط الذي تستنسبه واذا رأى بعضهم في بعض المعتقدات ما لا ينطبق على روح الحضارة والعلوم العصرية فالاولى ان يطبقوا العقل على النقل كما هو رأي كبار علماء الاسلام منذ القدم . واذا عجزت عقولهم عن ذلك فالاجدر بهم ان يأخذوا بعض القضايا بالتسليم ويتركوا العلم حرا يسير وحده دون ان يعوقه عائق ولا يحول وكل عاقل الا ويعتقد ان صحيح النقل لا يخالف صريح العقل والقدماء

التربية والامهات

هي الاخلاق تنبت كالنبات   اذا سقيت بماء المكرمات
تقوم اذا تعهدها المربي   على ساق الفضيلة مثمرات
وتسمو للمكارم باتساق   كما اتسقت انابيب القناة
وتنعش من صميم المجد روحا   بازهار لها متضوعات
ولم ار للخلائق من محل   يهذبها كحضن الامهات
فحضن الام مدرسة تسامت   بتربية البنين او البنات